جامعة محمد بوضياف - المسيلة
Université Mohamed Boudiaf - M'Sila
مخبر الشعرية الجزائرية
Laboratoire la Poétique Algérienne

أعمال الملتقى الوطني الرابع

تلقي الخطاب الأدبي الساخر في الأدب العربي بين المتعة، الإثارة والفائدة

Le discours littéraire satirique dans la Littérature arabe contemporaine entre plaisir, enthousiasme et intérêt

منشورات مخبر الشعرية الجزائريّة

03 مارس 2020 // 03 mars 2020

تنسيق: د. سعدية بن ستيتي

عنوان الكتاب

أعمال الملتقى الوطني الرابع
تلقي الخطاب الأدبي الساخر في الأدب العربي بين المتعة، الإثارة والفائدة
يوم الثلاثاء 03 مارس 2020 بمدرج المكتبة المركزية بالجامعة

تنسيق وإشراف: د.سعدية بن ستيتي-جامعة المسيلة

تاريخ الطبع: مارس 2020

ISBN: 978-9931-749-20-2

الإيداع القانوني: مارس 2020

عدد الصفحات: 332 صفحة

الحجم: 17x24 سم

جميع الحقوق محفوظة

المقالات المنشورة تعبر عن آراء أصحابها ولا تتحمل دار النشر مسؤوليتها

نواصري
للطباعة والنشر

نواصري للطباعة والنشر
الهاتف: 035.35.31.08
البريد الإلكتروني: imp.nouasri@gmail.com

منشورات مخبر الشعرية الجزائرية
جامعة محمد بوضياف، المسيلة، 2020

أسلوب السخرية عند" محمد البشير الإبراهيمي"

د. حسين مبرك- جامعة محمد بوضياف- المسيلة.

ملخص:

لاشك أنّ السخرية هي آلية يعتد بها الكاتب، أو الأديب، أو الشّاعر، ويعتمد عليها في عرض فكرته، والتعبير عن وجهة نظره، وبيان موقفه من ظاهرة، أو قضية، أو موضوع ما...وهذه الآلية هي أسلوب يصطنعه السّاخر يتبنّاه، ويرى فيه أداة صالحة مناسبة لترجمة ما يتأجج في خاطره، ويعتمل في نفسه، من أفكار وأحاسيس وعواطف، تأبى أن تعلن عن نفسها إلا في قالب من السخرية والتهكم والازدراء حتى تحقق غايتها، وتفي بغرضها

ويُعد البشير الإبراهيمي واحدا ممّن أخذوا بزمام هذا الفنّ ، وامتلكوا ناصيته ، ولاسيما في معالجة الموضوعات التي تتّصل بنهضة الأمة ، وقضايا التعليم والحرية ، والمرأة والإصلاح واستنهاض الشباب وتوعيته ، وتقويم الاختلالات ، ودرء المفاسد ..، فكيف كان ذلك؟

الكلمات المفتاحية: السخرية ، الإصلاح ، التقويم ، الاستنهاض ، التعبئة ، الوعي

من الأساليب التي اعتمدها الإبراهيمي في خطابه النهضوي الإصلاحي ، أسلوب الاستفهام ، في تعامله مع بعض المارقين الذين حادوا عن الصواب، وظنوا أنهم يحسنون صنعا، وهم في الحقيقة عون للمستعمر وعينه، وخدم له، سخرهم لتنفيذ مخططاته ومشاريعه ، وهدم مقومات المجتمع الجزائري ، وطمس معالم شخصيته والإبقاء عليه لقمة سائغة وفريسة للجهل والتخلف ، وهاهو يعلن حين بلغه أن رجال الزوايا عقدوا مؤتمرا يهدف إلى مناهضة الحركة الإصلاحية، وتعطيل مشروعها النهضوي، بقوله:" أيس هؤلاء المؤتمرون من الأمة؟ أليسوا أئمة الأئمة ؟ وهذه المجلة التي قرروا إصدارها- وما نراها تكون إلا لسان حالهم- فماذا ينشرون فيها؟ أتكون رسمية تنشر أوامر التولية والعزل؟ إن الأمر ليس بأيديهم، وقد كفتهم الكافية أم تكون رسمية بمعنى آخر، فتنشر الفتاوى الشرعية،التي تعمر أوقات المفتين،ليعم النفع بها، والخطب الجمعية التي يلقيها خطباؤهم، ليقراها من لم يسمعها؟ أم تنشر شروط الإمامة العصرية، ومنها الاعتماد في التزكية على (الدوسي).

إن هذه التساؤلات التي أفضى بها الإبراهيمي، تنم عن إحساس بالاستياء والتذمر تجاه ما يصدر عن هؤلاء الرجال من أقوال وممارسات مشينة تزكي عدوان المستعمر وتبرر ظلمه ، وتسوغ طروحاته ومشاريعه الهدامة للوطن والدين، فلم يكن الإبراهيمي ليخفى عليه هذه الأساليب الماكرة والمخادعة لتمرير سياسة المستعمر من قبل هؤلاء ، ولكنها محاولة لفضح مثالبهم ، وكشف ما يتسترون عليه ، إمعانا منه في ازدرائهم والتعريض بهم والتشهير بدسائسهم

ويعمد الإبراهيمي إلى هذه الصيغ اللغوية التعبيرية للإفصاح عن مواقفه وقناعاته الراسخة تجاه أعداء الدين واللسان والإنسان، والكشف عن خبثهم والمؤامرات التي يحوكونها برعاية المستعمر، وينحى باللائمة على بعض أتباعهم من الغافلين والسذج الذين جاروهم في أكاذيبهم وأباطيلهم ومزاعمهم ،واسمعه حين يقول مستهترا بهؤلاء مستخفا بعقولهم مسفها أحلامهم:" وحسب الاستعمار ديمقراطية أن يحاكم معلّمي العربية والإسلام، ويسجنهم على التعليم كما يحاكم المجرمين ويسجنهم على الإجرام في محكمة واحدة وسجن واحد وظرف واحد، وقد يكون يوم الجمعة في الغالب، أليس هذا احتراما للإسلام؟ ومن مصلحته كما يقول العاصمي؟ أليس هذه هي الديمقراطية؟ فمالكم تكذبون؟ بمثل هذا الأسلوب الطافح بالاستهجان والتحقير، الحافل بمعاني التسفيه والتقريع لهؤلاء المغرضين والمدسوسين الذين يكيدون للعربية والإسلام ما وجدوا إلى ذلك سبيلا، يقول"[1] أليس في صنيع المستعمر الديمقراطية الكاملة التي يؤمن بها، فإنه احتراما للإسلام، يساوي بين عمل معلم القرآن ومرتكب الجرائم ويجعله في صف واحد معه:صفة، ومحاكمة ومأوى، ويتم ذلك في أحد الأيام المشهودة عند المسلمين، وهو يوم الجمعة.أليس هذا احتفاء بالإسلام، وتجسيدا للديمقراطية؟ فما للجاحدين ينكرون هذا الفضل؟ ويكذبون هذا الإجراء"[2]

وليس غريبا على الإبراهيمي المصلح والمعلم الخبير بأسباب التغيير والنهوض، أن شخص أصل الداء ، ووصف الدواء والحلول للمعضلات والأزمات التي تحول دون نهضة المجتمعات ورقيها ، فتراه يشير إلى مذهب المستعمر في تكريس الفساد

وترميخ دواعي التخلف والهمجية ،نحو قوله:"أليس معنى مقاومة التعليم نشر الأمية وتكاثر الأميين؟لا يقتضي المنطق إلا هذا، ولا يفعل الاستعمار إلا هذا، لأن له مذهبا في المحافظة على الأمية لئلا تزول، كمذهب العلماء في المحافظة على الحيات السامة لئلا ينقطع نسلها"[3]

ويمضي الإبراهيمي في هذا السياق من التقريع المفعم بالإدانة والشجب مرة، والحافل بالزجر والاستنكار مرة ثانية ، كاشفا زيف الشعارات التي يلوح بها هؤلاء ، لأن المستعمر شر محض لا يمكن أن يخالطه خير ، أو يصدر عنه معروف وإحسان نحو قوله:"..ولو أنّ طفلا منهم خرج من غاره ودخل مدرسة عربية لجاءت الحكومة تسعى وهي تخشى أن يصيبه سوء من عدم المحافظة على الصحة "[4]

ولا يزال دأب الإبراهيمي في خطاباته ومقالاته ووصاياه ، يحشد كل أدواته البلاغية لكشف الحقائق ، وتعرية جهامة الاستعمار وفضح مخططاته، وإماطة الأقنعة التي يتستر بها لتدجين السذج والمترددين والمتشككين والغافلين والمتآمرين من أذناب المستعمر وعملائه من العرب، يقول:" إن الأقوياء الذين تولوا أمر التقسيم، وحملوا أولئك الضعفاء بالوعد والوعيد على التصويت عليه، ماارتكبوا تلك الجريمة الشنعاء وغمطوا حق العرب ، إلا بعد أن غمزوا مواقع الإحساس من العرب،فرأوهم جادين كالهازلين، ورأوا منهم ناكثين كالغازلين، ورأوا في أمرائهم المقاومين على أعنف ما تكون المقاومة، والمساومين على أخس ما تكون المساومة، وفي شعوبهم الجاهل والذاهل، والمتشدد والمتساهل، فبنوا مقدمات الحكم على هذا التفاوت في الكيان العربي، وغرهم بالعرب الغرور، ولم يتبعوا الأيام نظرهم، بل وقعت عينهم على يوم العرب وأغفلوا غدهم"[5] الملاحظ أن الإبراهيمي يشير إلى حقيقة تخفى على كثير من أبناء العصر، وهي أن الأقوياء ما كانوا ليكونوا كذلك ، لو لم نكن نحن ضعفاء وحين أدركوا ضعفنا أمعنوا في إضعافنا وإذلالنا، وصادروا حقوقنا، وسلبونا حريتنا، وعاملونا معاملة السيد للعبد، والقوي للضعيف، وحكموا علينا بأن نعيش عاجزين متخلفين تابعين لهم لا متبوعين وخادمين لا مخدومين ومتخلفين لا متقدمين ، ومثل هذه الأمراض هي التي فتكت بالجسد العربي وأنهكته واستنزفت قواه، وحولته إلى كيان بلا عقل ولا روح ولا ضمير، فتبددت كل دواعي النهوض ، ووقعنا في مهاوي الانحطاط والتلاشي، وتمكن العدو منّا، وضربنا في العمق، وزرع بيننا وفينا أسباب الشقاء والفناء، ويسترسل الإبراهيمي في تشخيص مصابنا، وما لحقنا من نكبات وانتكاسات في حياتنا على يد هذه القوى الغاشمة التي لا ترحم ضعيفا ،بقوله:" ثم فعلوا الفعلة النكراء فوازنوا بين ما نملك من قوى مادية، نستطيع بها الممادة في الجهاد، وبين ما يملك الصهيونيون من ذلك ودرسوا وقارنوا، واستخدموا الجمع والطرح والضرب، فأنتجت لهم المقدمات هذه الحقائق، وهي أننا لا نملك مصنعا للسلاح ولا معملا للكيمياء، ولا رجالا فنيين، كالذي يملكه اليهود من كل ذلك.وأنّ ثلاثين سنة مرت – وكلها نذر بهذه العاقبة – لم توقظنا من غفلتنا، ولم تدفعنا إلى الاستعداد لها، فقالوا: نقسمها ونريح اليهود، لأن لنا فيهم فائدة معجلة، ولا نخشى العرب لأنه ليس فيهم مضرة مؤجلة"[6]، ويظل الرجل يحصي على العرب سقطاتهم وكثرة عثراتهم وطول غفلتهم عما يحاك ضدهم ، ويدبر لهم في السر والعلن ، وقلة حيلتنا وضعف تدبيرنا ، وسوء تفكيرنا وتفرق السبل بنا ، وهواننا على أعدائنا واستزافهم لقوانا وتحكمهم في مصيرنا كحتمية لعدم أخذنا بأسباب التفوق والغلبة ، وإعراضنا عن نواميس الحياة .

وهكذا نجد الإبراهيمي يرصد دسائس المستعمر ، ويكشف عوراته ومخازيه ، ويفضح ممارسات فرنسا وسياستها العدائية القائمة على التمويه والمراوغة والإغراء والتغليط بأسلوب غاية في السخرية والتهكم ، بقوله:"..ونظرنا نظر المستقل، الذي يبني أحكامه على الواقع المحسوس، فوجدنا هذا الوليد الناقص الذي يسمونه الدستور الجزائري، لم يُشرع جديدا، ولم يزرع مفيدا، ولم يزد على أن نقل هذه القضية من ميدان إلى ميدان، ومن يد إلى يد ، نقلها من فرنسا إلى الجزائر، ومن برلمان يسيطر على الأفراد، إلى شبه برلمان يسيطر عليه فرد...ليدفع الغضاضة عن فرنسا اللائكية، ويلصقها بفرنسا المسلمة التي تتمسك من الإسلام بعقائده، وتعرف كيف تسيره وتسيرهم، فكأنه يقول لحكومة الجزائر: لنت فاشتدي، ورضيت قليلا فاحتدّي، وتركتُ لك ما إن عملت به لم تضلي من بعدي، ولم أضع لك قانونا، بل شبكة كلها خروق، فاخرجي من أيها شئت..."[7] هذا هو النموذج الإبراهيمي في عرض الأفكار وتحليل القضايا ، يتناولها بأسلوب الحكيم، العارف بوجوه استعمال اللغة، فيقلب الفكرة، ويستخدم وسائل الإقناع ، ويستحضر الشواهد ، ويعمد إلى المحاججة والمقارنة ،لاستخلاص النتائج والأحكام، بنبرة مثقله بنزعة السخرية التي تنبيء عن

حصافته وشجاعته، وقدرته على قراءة سياسة المستعمر، ورمي مخططاته ومناوراته بسهام نقد لاذعة مقذعة . لا يقبل المهادنة والمساومة ، ولا يرضى بالذلة والهوان مهما كانت المخاطر والمغريات، التي يعتمدها المستعمر لشراء الذمم واحباط الهمم، و يظهر التعريض في هذه الصفات التي ألصقها الكاتب بالحكومة الفرنسية ، المنقلبة بين اللائكية، حين تكون في فرنسا وتشرع للفرنسيين، وبين الإسلام حين تكون في الجزائر وتشرع للجزائريين، وتتصرف مع الدين فيها. ما يلفت النظر في هذا التعريض التضمين الذكي للحديث النبوي الشريف الذي يبين للمسلمين طريق الرشاد والهداية والاستقامة، وهو العمل بهديه، فالأمر نفسه يجب أن تسلكه الحكومة، وهو السير على هدي الدستور الجزائري، الذي يبين لها ما إن اتبعته لن تضل بعده أبدا، وهو الزيادة في الشدة والتضييق والتنكيل، وسبيل ذلك شبكة من قوانين كلها خروق، تعين على التصرف، وبكل حرية في كل موقف، لأنه لا حرج عليها في التأويل، وهو ما يتيح لها إيجاد أي مخرج أو حجة للعب بمصائر المسلمين ، والتسلط عليهم وقهرهم"[8]

وهاهو يحصي على فرنسا الاستعمارية مثالبها وغدرها بالمستضعفين وتنكيلها بهم وصنع مآسيهم وويلاتهم، وجنايتها عليهم في كل الأوقات، وهو ما أشار إليه بقوله:"...وكأنه يقول لها: بدأت فتممي، وخصصت فعممي، وصدعت الحائط فرممي، وتساهلت فصممي، وأشرت بالترياق وأنت...فسممي ، وجملت الوجه قليلا فدممي، وقالوا : إن فرنسا تغضب الإسلام، فأقيمي الدليل على أن المسلمين راضون وشددي اللام من صفتهم فإذا هم (مسلمون)، ففهمت الحكومة هذه الإشارة، وتلقتها كأنها بشارة، وكيف لاتستبشر والدستور برمته (لامركزية)؟من النوع الذي يسيل عليه لعابها، وبنود القضية الدينية منه إطلاق ليدها في التصرف المطلق، لذلك فهي قد فهمت من الدستور أشياء، غير ما فهم الناس، ولذلك قامت بالتنفيذ على حسب مفهومها، لا على حسب فهم الناس"[9] ،وعلى هذا المنوال ظل الرجل ينسج خطبه ومقالاته بأسلوب الأديب البارع الذي يعنى بتنميق العبارة وتجويد الصياغة وجمال الأداء ، وروعة الإيقاع ورصانة التركيب وتلاحم النظم، ووفرة الاتساق والانسجام بين مقاطع كلامه ، ونراه في موضع آخر ينعى على بعض الناس تخاذلهم وقابليتهم للاستعمار ، وهؤلاء هم من يمهد للمستعمر طريقه ، فهم عينه التي بها يرى ، ويده التي بها ينكل ويبطش ويصول، ورجله التي بها يسعى ،ولاسيما رجال الدين الذين يزكون سياسة المستعمر ويسوغون مشاريعه ويغطون على جرائمه ويتسترون على وحشيته ويدعون لموالاته ، ووجوب طاعته والانصياع لأوامره، وهؤلاء هم الاستعمار الروحي الذي يهيىء النفوس ويغسل الأدمغة ، ويشتري الذمم ويثبط الهمم ، ويشير إلى الدستور الذي صاغته فرنسا على مقاسها بلغة ساخرة من صنيع فرنسا وعبيدها الذين استخفتهم فأطاعوها واتخذتهم أنيابا ومخالبا، بقوله:" فبدأت بالمجلس الجزائري فصاغته على ما يوافق هواها، وظفرت منه بمفرد يأتي بالجماعة ، ولها من ورائه مدد من رجال الدين، وعدد من المرتزقة المجندين، وبدد من الظلمة المعتدين، وأوزاع من العوام غير المهتدين، وأشياع من الزملاء المنتدين، فإذا اتحد هؤلاء اتحادا كيمياويا ثم المطلوب وكان حزب الحق هو المغلوب[10]

كما توسل الإبراهيمي في معالجة قضايا عصره بأسلوب مثير للضحك ، هو أقرب إلى التصوير الكاريكاتوري الذي يذكرنا بأسلوب الهجاء عند ابن الرومي وأسلوب السخرية عند الجاحظ ومارون عبود ،في محاولة منه لتقويم الاختلالات ونقد المفارقات وزجر الشذاذ والعملاء والمنحرفين ، نحو قوله:" دخل الجميع – لأول مرة في تاريخ حياتهم- جمعية لا يدرون بمن تدار ، ولا كيف تدار ، وسمعوا لأول مرة كلمات : النظام والاشتراك والمواد واللجان، وسمعوا خطبا مأجورة، لا فرق عندهم بينها وبين عزائم الجان، ثم تقاضتهم الجمعية ما لا عهد لهم به، ولا ألفته نفوسهم وهو المال، الاشتراك، التبرع، الإعانة، فقالوا في أنفسهم: إن هذا لشيء لم نخلق له، إن هذا لشيء يراد.."[11].

خاتمة:

إن مثل هذه الجماعات الضالة المضللة، هي جماعات موجودة في كل زمان، وفي كل مكان ، تلقي بنفسها في أحضان الأجنبي ، ليستغلها في تكريس سياسة فرق تسد، وإثارة النعرات والصراعات ، وخلق الفرقة والاختلاف وزرع الفتنة . ولعل المقام اقتضى أن يعتمد الرجل على هذا الأسلوب الموغل في الخربة ، الممعن في التفكه والتهكم للتعريض بهذه الفئة التي لا يقل ضررها وخطرها عن المستعمر نفسه.

ويلتفت الإبراهيمي إلى الأحزاب التي أنشأتها فرنسا، وما جمعته حولها من أتباع وأشياع، يساقون إلى وجهة يبتغيها المستعمر، ويقادون إلى غاية يرتجيها ، حيث يقول:" إنّ هذه الأحزاب كالميزاب جمع الماء كدرا ووزّعه هدرا، فلا الزلال جمع ولا الأرض نفع "[12].

إن هؤلاء فاسدون مفسدون، لا خير فيهم، وبمثل هذا التصوير البديع يحاول الإبراهيمي أن يشخص العلة التي سببت البلاء، وورثت الداء، وجنت على الأمة والوطن والدين ، إلى ذلك عمد الرجل إلى تصوير بعض المواقف التي عاشها، من خلال تجارب مرّ بها في دول زارها الإبراهيمي ، تصويرا لا يخلو من هذه الروح المرحة التي أضفت على أسلوبه ملحة ومتعة. يقول عن الصعوبة التي وجدها في اللغة ، أثناء الرحلة التي قادته إلى باكستان:" أبت لي همّتي أن أجمع بين الجهل والعجز، فتعلّمتُ في بعض يوم ألزم ما يلزمني للضرورات، أهمها –عندي– طلب الماء البارد في ثلاث كلمات:(طانده، باني ، لاو). والأول معناه بارد، ولكن مخرج الطّاء فيها من أغرب المخارج، والثانية معناها: الماء، والثالثة معناها: هات ومن هذه الجملة تعلم صعوبة التركيب وغرابته في ذوق العربي، ومن اللطائف أن أستاذي في هذه الجملة هو ولدنا الفضيل، حلّ به ما حلّ بي، فحفظ ثمانين كلمة من الأوردية، فألّف منها قاموسا غير محيط، وفتح الله عليه فأصبح معلّما لتلميذ واحد هو أنا، ثم حفظت عن شيخي كلمة(بزاف) بفتح الأولين وسكون الثالث، ومعناها الثّلج ، ثم حفظت ثلاث كلمات ضرورية وهي (أو) ومعناها تعال و(جاو) بمعنى اذهب، و(جالدي) ومعناها: أسرع، وأسعفتني الذاكرة بكلمة تركية حفظتها قديما ووجدتها هنا، وهي (نماز)، ومعناها الصلاة، وحفظت (روطي)، ومعناه الخبز (ونماك) ومعناه الملح، ومن حصل على الصلاة والماء البارد والعيش والملح، فقد فاز فوزا عظيما.."[12]

الهوامش والإحالات:

1- عيون البصائر :محمد البشير الإبراهيمي، دار المعارف القاهرة، 1963، ص430
2- المصدر نفسه، ص371
3- المصدر نفسه، ص376
4- المصدر نفسه، ص377
5- آثار محمد البشير الإبراهيمي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، الجزائر، 1981، ص69
6- عيون البصائر: محمد البشير الإبراهيمي، ص493
7- مجلة الوعي، من أساليب السخرية في أدب الإبراهيمي لمحمد بن قاسم بوحجام، دار الوعي للنشر والتوزيع، الجزائر،ص67
8- عيون البصائر: محمد البشير الإبراهيمي، ص92
9- السخرية في الأدب الجزائري الحديث:محمد بن قاسم بوحجام، جمعية التراث القرارة ، الجزائر، 2004، ص273
10- المرجع نفسه، ص 274
11- الوجع نفسه، ص274
12- عيون البصائر: محمد البشير الإبراهيمي، ص 70

العنوان: حي تعاونية الشيخ المقراني -إشبيليا- مقابل جامعة محمد بوضياف بالمسيلة - الجزائر.
تلفاكس: 035.35.31.08
imp.nouasri@gmail.com
ISBN: 978-9931-749-20-2
الإيداع القانوني:
مـــارس 2020
نواصري
للطباعة والنشر